الحياة في اللغة العربية

الأستاذ إلياس فنصل الأرمنتية

— 1 —

تختلف اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأن **« الحياة » التي فيها حياة خلاقة مبدعة** ذات عبقرية خاصة . وفي الوقت الذي نجد بقية اللغات ادوات للتعبير متى بلغتها فقد بلغت غايتها القصوى وانتهت مهمتها نجد ان الضاد لا تكتفي بهذه الغاية بل هي **تريد ان يكون التعبير جميلا** وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء ، فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء .

ولو احببنا ان نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى الاذهان لاستطعنا القول ان بقية اللغات كالساعات العادية تضبط لك الوقت اقرب ما يكون الى الدقة ، **اما اللغة العربية فكالساعة الذهبية** التي لا يمكن الا ان تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لان معدنها يحمل صانعها على مراعاة قيمتها وتوفير الانسجام بين آلاتها الداخلية وغلافها الثمين — دفعة واحدة — آلة لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلفت الانظار ورصيد مادي يحتفظ بقيمته الابرائية .

وياتيك البرهان في صيغة من صيغها العديدة :

« المبالغة » في ابسط صورها هي تضخيم الشيء بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حلت اللغات الاخرى هذه المشكلة — اذا جاز لنا ان نسميها مشكلة — بطريقة شكلية خلاصتها اضافة زوائد على الكلمة او تغيير آخرها .

وهذا التحوير يكبر الكلمة في « العين » فقط .

وما هكذا اللغة العربية .

ان اللغة العربية حين تود ان تضع الكلمة في قالب المبالغة تعمد الى « الحياة البشرية » فتتتبس منها ما يبث في الكلمة روح هذه الحياة .

واترك الموضوع قليلا على ان اعود اليه بعد سطور .

ان الرجل الذي ينعم بميزات الرجل لا يستطيع ان ينال من تحديقك اليه ما ينال الرجل الذي شاءت الطبيعة ان تضع فيه بعض ميزات المراة .

انك تمر بالرجل « العادي » فلا تحفل به .

ولكنك اذا مررت برجل قد برز نهداه — مثلا — فلا يسعك الا التفكير به قليلا او كثيرا لان بروز النهدين من خصائص المراة لا من خصائص الرجل .

وما نقوله عن الرجل نقوله عن المراة .

ولا نعبأ بشعورك ازاء هذا التجاوز او ذاك على الحدود المرسومة لاحد الجنسين : ما نشير اليه هو ان هذا التجاوز يلفت نظرك .

وقد ادركت اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها على صيغة المبالغة .

فاذا شئت ان تصف رجلا كثير الرحلات قلت عنه انه « رحالة » .

انها تقدمه لك وقد لحقت به التاء التي كان من حقها ان تلحق بالكلمة المؤنثة . فعلت ذلك لتلفت نظرك الى صفة المبالغة فيه .

واذا وصفت لك رجلا واسع العلم قلت عنه انه علامة .

وهكـــذا .

ان اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفي بالطريقـــة الشكلية باضافة التاء الى الكلمة بل تعمد كذلك الى المعنى فتغير صفته وتملأ « عينيك وخاطرك » في نفس الوقت .

ان خصائص التانيث في الكلمة هي الوجه الآخر الذي يضع امام « الفكر » صورة صادقة من المبالغة في حين ان اضافة الحرف ـــ التاء ـــ وتشديد عين الكلمة هي الوجه الاول الذي يضع امام « العين » الصورة المطلوبة .

وانت تنتقل بالمبالغة من « العين » الى « الفكر » ليتم المقصود من التحوير لتستطيع ان تلم اوسع الالمام بالمبالغة المتوخاة من التغيير .

وما ينطبق على الكلمات المذكرة ينطبق علـــى الكلمات المؤنثة ولكن بوسيلة عكسية .

ان صيغة المبالغة في الاولى هي الحاق علامـــة التانيث بها .

فمن الطبيعي والمنطقي ان تكون المبالغـــــة في الكلمات المؤنثة حذف علامات التانيث منها .

واذا بالمراة التي تصون نفسها امراة « مصون » ـــ لا امراة مصونة ـــ . واذا الحرب التي لا تبقى ولا تذر الحرب الضروس ـــ لا الحرب الضروسة ـــ .

ان هذا التغيير او هذا القلب يجعل عينيـــك تلتفت الى ما اريد من المبالغة ، ويجعل عقلك يمتلىء بالصورة التي وضعت لها .

ان تاء علامة ورحالة وما اليهما هي بروز النهدين في الرجل .

وان حذف تاء التانيث من مصونة وضروسة وما اليهما هي اللحية في ذقن المراة .

وليعذرنا الجنسان ـــ اللطيف والخشن ـــ فما اردنا الا تقريب القضية الى الاذهان .

ان لغتنا تمتاز كما اشرنا بهذه النفحة من الحياة التي تطل من تراكيبها وصيغها ومشتقاتها ومن كلماتها ايضا . وهذا سر من اسرار عظمتها وجبروتها .

لقد حاربها الطغاة في مختلف عهودهم وحاولوا ان يقضوا عليها .

ثم .. ذهب الطغاة **وظلت لغة الضاد تـــــزود القومية العربية بالقوة والجمال والخلود .**

— 2 —

الحياة في اللغة العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة ـــ كما اشرنا سابقا ـــ وهي لا تكتفـــي بمسايرة التطورات المستحدثة ـــ كما تفعل بقية اللغات ـــ بل يجد الباحث فيها « حركة بشرية » في تفاعلها . **فكانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه العواطـــف والاحاسيس .**

ومن ابرز الميزات في اللغة العربية ان كلماتهاتنعم بهذه الحياة وبهذه الحركة التي نصف في الوقت الذي نجد الكلمات في سائر اللغات ادوات جامدة لا يدب فيها شيء من الحياة الا بعد ان تجتمع طائفة منها الى بعضها وتؤلف عبارة .

كتبت فئة من المتبحرين في علم اللغة ان الكلمات العربية ذات اصول ثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة ـــ مثلا النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز والنبو ـــ فانظر الى فروع هذا الجذر :

نبت = برز من الارض .

نبط = اخرج ماء البئر

نبع = خرج من العين

نبغ = خرج وظهر

نبق = خرج وظهر

نبك = ارتفع

الى آخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في الاصل .

هذا ما كتبه فريق من العلماء وقد اتخذوا كثيرا من الاصول ادلة واضحة صريحة .

واجتهادنا الوضيع فيهذا الصدد ان اللغة العربية في عبقريتها لم تكتف بهذا « المنطق » الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى ابعد من ذلك . وها هيظاهرة جديدة من ظواهر حياتها وحركتها حتى في الكلمات :

ان اللغة العربية « تتساهل » اسمى ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الكريمالشهم ازاء صاحبه تماما .

خذ مثلا كلمة غضروف :

ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحركات في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة — وفي السرعة الزلل .

فماذا تفعل اللغة العربية لتتلافى هذا الامر ؟ انها تتساهل معك وتقول :

اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فالفظ كلمة « غرضوف » فانها هي نفسها .

وهكذا تترك لك اللغة المجال واسعا حتى اذا استثقلت اجتماع الغين والضاد وضعت بينهما الراء او اذا انسابت الكلمة من فمك سريعة الانفصال عن مكانها في العبارة أمنت الزلل الذي يمكن أن تقع فيه من تناسق الحركات في الكلمة .

ان اللغة العربية لا تتمنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى فاذا أنت من « نبالة عواطفها » ومن « شهامة اخلاقها » اسير لا تكاد تملك من امرك شيئا .

وهاك مثلا ثانيا :

« القاف » حرف حلقي يصعب لفظه على البعض ولا بد من لفظه على من يتكلم الضاد . ولكن اللغة العربية لا تتزمت بل تتساهل كعادتها وتقدم لك برهانا جديدا على « طيب عنصرها » .

اذا لم يكن من المهين عليك ان تقول :

دق : ومعناها كسر .

فلا باس قل :

دك : ومعناها هدم .

ان اللفظتين تتقاربان في الاداء بحيث يمكنك ان تنيب الثانية مناب الاولى — هذا اذا كنت كما اشرنا ترى من الصعب التلفظ بالقاف .

وهذا التساهل من طبع اللغة العربية ولا يسري على كلمة مفردة بل على كلمات كثيرة .

وليس من عمل الصدف ان تكون لفظة « ركيك » قريبة جدا من لفظة « رقيق » .

وليس من عمل الصدف ان تكون كلمة « قط » مرادفة لكلمة « قد » و « قت » .

وليس من عمل الصدف ان تكون « لغلغ » و « لغلغ » بمعنى واحد تقريبا .

واذا لم تشأ ان تقنع بهذا التساهل الفريد بين جميع لغات العالم أحلناك الى الدليل الذي ما بعده دليل على ان التساهل هو من طبع هذه اللغة .

لقد نوعت اللغة الحركات على كثير من الكلمات حتى اذا لفظتها — على غير يقين من شكلها — لم تكن فيها على خطأ .

البصل البري اسمه العنصل (بضم الصاد) والعنصل (بفتح الصاد) والعنصلاء (بضم الصاد) والعنصلاء (بفتح الصاد) .

والارمناء الفظها كما يعن على بالك بضم الباء او فتحها او كسرها .
وهذا التنويع والتشكيل في المصدر :

فاض غوصا وغياصا وغياصة ومغاصا

اتريد ارحب من هذا الميدان ؟

اتريد اكرم من هذا الكرم ؟

لا . لا

اننا نحن الذين لم نعرف قيمة هذه اللغة الفريدة من نوعها .

اننا نحن الذين لم نجل حتى الآن الا القليل القليل من اسرارها .

اننا نحن الذين لم ندرك ما في كلماتها وحروفها من حياة وما في تراكيبها من منطق وشعور .